سِيْدِي عُمَر

ذكريات الشيخ محمد أبو طير

تحرير

بلال محمد شلش

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الثاني

لكل مقدمة نتائجها: الاحتلال، الكفاح المسلح

لكل مقدمة نتائجها: الاحتلال، الكفاح المسلح

أقول، والله أعلم، إن لكل بداية اهتماماتها، ولكل مقدمة نتائجها. فمذ كنا صغاراً، ومن الأيام الأولى لنشأتنا، وقبل أن يطأ الاحتلال أرضنا، كانت اهتماماتنا فيها أحلام وآمال لتحرير فلسطين. ويوم أن سقطت القدس، بعدما اشتد فينا العود والساق، سقطت مثخنة بالجراح، جراح التآمر والخذلان... جراح الإهمال وعدم الاهتمام، جراح الغفلة وعدم الإعداد والاستعداد... ازدادت فينا الاهتمامات، وتفجرت الطاقات، وظهر منا الرفض بالفعل لهذا الدخيل... نعم، كان هامش الحركة للشعوب أمام تلك التحديات محجوراً عليه، ولم يكن من خيارات أمام القهر، والتجويع، والحرب النفسية، التي نجحت في تخدير الرأي العام، وإضعاف الشعور الوطني والقومي، وعزل الدين عن دوره في تعبئة الجماهير، واستنهاض الوعي بشحنة من حرية التعبير، وأن تملك الشعوب خياراتها التي حوصرت، بل غيبت. لكن مع الزمن ومع حركة الوعي الوطني، استبسل الناس في التصدي للاحتلال.

إن خصوصية الحديث هنا عن القدس، ليس لأنها ذات مكانة وقداسة لديّ ولدى غيري، بل تكمن خصوصيتها لديّ في أني قد حفيت قدماي قبل الاحتلال وبعده وأنا أروح وأغدو إليها، ومشيت حافياً من أم طوبا للصلاة في المسجد الأقصى، والاسترواح في ظلاله. فالقدس احتضنتني منذ الصغر وطوال العمر، وَحُقَّ لقلبي أن يتوجع، وأن يتجرع مرارة الألم... لما وطأتها أقدام الصهاينة. وإن عزل القدس عن شدّ الرحال إلى مسجدها، بالتفريط والإهمال، قبل أن يتجرأ الصهاينة على احتلالها، هو خيانة لله وللرسول وللأمة، وإنها اللامبالاة بحقها، وعدم الاهتمام بمصيرها، وهي التي تستحق أن تحاط بكل أسباب القوة؛ حتى لا تكون لقمة سائغة للمجرمين، وهي التي تستحق أن تبقى شاهداً على هيبة الأمة وعلى عافيتها. إنها التي تستحق كُتلاً بشرية تفتديها بالأرواح والدماء، بما لا يقل عن مكة والمدينة —على ساكنها الصلاة والسلام— إنها مسرى الرسول ومعراجه إلى السماوات العلا، إلى سدرة المنتهى... عندها جنة المأوى، وإنها موطن عيسى وأمه البتول عليهما السلام وهي مهد الرسالات، فمن هذا الذي غابت عنه هذه المعاني؟ ومن هذا الذي ما عرف قدرها؟ ومن هذا التائه الضائع الذي لم يحتط لما تعنيه هذه المدينة من اعتبارات؟ مَنْ هذا الذي لم يُحطها بجهد وجهاد يليقان برمزيتها؟ وبجحافل بشرية همها أن تبقى القدس عصية على المؤامرة والاحتلال، بدلاً من خطوط

نار وهمية باهتة، يغدو الصهاينة ويروحون من خلالها إلى حيث شاؤوا، وسقطت القدس، وباء بإثمها من فرّط فيها.

على كل حال، ومنذ الأيام الأولى من العمر، كانت اهتماماتنا أرقى في حِسِّنا من مستوى أعمارنا، وكنت أعيش الهموم مع الناس في لقاءاتهم اليومية بعد الحرب، وعندما تميل الشمس للغروب، ويطول الحديث عمّا حلّ بنا، وكيف بهذه السرعة تمكنت "إسرائيل" من احتلال الأرض العربية؟ وكيف بدا الموقف العربي عاجزاً ومنهاراً، وحساباته باهتة. ولقد كان لنا أحاديث خاصة مع بعض الشبّان الذين تمردت نفوسهم على هذا العدوان، بل ومنهم من لحق بركب المقاومة والثورة من أيام معركة الكرامة. كنت أدرك تماماً أنها مخاطر، وأن فلسطين لها تجاربها مع الغزاة والمحتلين، وكانت عندي ثقافة عن الحروب الصليبية، وخلفية عن حربنا مع الصهاينة، ما دفع بي إلى أن أمضي على ما آمنت به. وقريباً منا مخيمات اللاجئين، التي ألهبت مشاعري بألم نفسي على أحوالهم وحياتهم البائسة، وكنت أنتظر عودتهم إلى ديارهم. وزاد من توجعي حال الأمة بعد الهزيمة، وكيف ضيَّع الحُكام هيبتها. ووقفت مع النفس طويلاً أياماً وأسابيع بل شهوراً، ولم تنتهِ مع السنين كي لا أكون في الحياة عالة في صناعة الحدث على غيري، فمن الناس من يمضي به القطار... قطار العمر، ولا يدري من أين ابتدأ؟ ولا أين انتهى؟ لكن الحياة مليئة بالأحداث، وحافلة بالمخاطر، وعلى درب من صنعَ الأحداث، نترك للقلم أن يسطر حروف المعاناة وضريبة العمر، وقد ابتدأتها دون العشرين، وأنا اليوم على مشارف الستين. وعلى هذا نسير، على درب الصالحين، لعلنا ننال حظاً من بركاتهم، أو نحظى بوصلٍ من جهدهم وجهادهم؛ فهم والله الرجال الذين تنتعش بهم الحياة حتى وهم في القبور، وهم الرجال الذين أعطوا للحياة وللبشرية، أكثر مما أخذوا منها، وعملوا لدنياهم كأنما الدهر حياتهم ومعاشهم، وتعلموا من نبيهم ﷺ حديثه: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها"[1]. وعملوا لآخرتهم كأنما تُحلِّق أرواحهم حول العرش، وكأن حظهم في الدنيا هو الاستغناء عنها، وليس لهم منها إلا الماء والهواء أكثر من الغذاء؛ لأن مَنْ غلب عليه الزهد فيها تعب جسده لترضى روحه، بل ما أهون الجسد عندما تحلِّق الروح.

[1] لتخريج الحديث ونصه انظر في: محمد ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1995)، الحديث رقم 9. [المحرر]

الانضمام إلى حركة فتح:

لما اشتد عود المقاومة، وفرضت واقعاً جديداً، لم يكن بحسبان دولة الاحتلال، ولا حتى العرب، أن المفاجأة ستأتي من هذا الشتات، وأن في الأمة بقايا لا تعرف الهزيمة، وخاصة بعد معركة الكرامة في غور الأردن سنة 1968، والتي شكلت تلاحماً ما بين المقاومة والجيش الأردني، الذي سطّر أروع المواقف من خلال هذه المعركة، والفدائيون الذين أبلوا بلاءً حسناً، ما أجبر العدو الصهيوني على الانسحاب والتقهقر بعد خسائر فادحة في الأرواح والمعدات. ولقد ثأر الجيش لكرامته التي ضاعت في حرب 1967، فكان أداؤهُ بطولياً.

بقيت معركة الكرامة رصيداً للذكريات التي جُبلت بالدماء، وكان لقريتنا، ومجموعتنا حضور على أرض هذه المعركة، كما كان لبقية القرى والبلدات حضورها، ولقد امتزجت دماء الشهداء من كل صوب، وعرج فوزي أبو طير[2] ورفاقه بأرواحهم إلى علياء الخلود، ووقع في الأسر، كما ذكرت من قبل، الأخ منير أبو طير، الذي شكلنا وإياه مجموعتنا من جديد، وبقيت على الوفاء حتى يومنا هذا.

أما الشهيد فوزي، فإنه كان من رواد المساجد قبل أن يلتحق بركب الثورة وأيام غربة الصلاة، وهنيئاً له الشهادة، بل له نفسية رجال الحروب وحبّ التضحية رحمه الله، وإن العَبْرة لتستحضرني من خلال هذه الكلمات، عندما أستحضر شخصيته الوثابة.

ولقد أخذتنا الحمية، بعد الزلزال الذي ماج بالأمة، نتيجة حرب 1967، وزاد على ذلك حريق المسجد الأقصى المبارك، وجاءت معركة الكرامة، لتجدد في الأمة روحاً جديدة من التحدي والإصرار على تحرير فلسطين، وأن من ظنّ وحكم على القضية بالغياب فهو في غيبوبة من التاريخ.

كنا أكثر من مجموعة على صعيد قريتنا، الأخ منير وأنا، ثمّ لحق بنا أخ ثالث اسمه محمود أبو طير وشكلنا نواةً لمجموعة خاصة بنا. وكنت مع مجموعة أخرى فيها الإخوة (أبو العز)، رحمه الله، خالد عبد الله أبو طير، والأخ (أبو زهير) محمد محمود أبو طير، والأخ خليل محمود أبو طير، ولحق بالمجموعة الثانية الشهيد علي العقابنة من قرية

[2] **فوزي موسى أبو طير (...–1968)**: ولد في قرية أم طوبا قضاء القدس، التحق بصفوف الثورة الفلسطينية مبكراً، واستشهد في معركة الكرامة في 1968/3/21.

خاراس. ثمّ كانت لنا مجموعة أخرى، فيها الأخ لطفي أبو طير وإخوة آخرون... آثروا الانقطاع وهذا شأنهم. كل هذا الحراك ما بين سنة 1967 إلى سنة 1974، حيث اعْتُقِل الأَخَوان منير ومحمود أبو طير مرة أخرى سنة 1973، وبقيا في السجن لخمس سنوات، ولحقت بهم بعد سنة، وذلك سنة 1974، لكن قمنا بنشاطات، منها جمع ما تبقى من العتاد الذي خلفه الجيش الأردني سنة 1967. ومن خلال الجمع والتحضير انفجرت قنبلة، أو صاعق قذيفة لا أدري بالضبط... انفجر ذلك بين يدي الأخ محمود، فذهبَ بيده اليسرى، وأخذ أربعاً من أصابع يده اليمنى، ودخل السجن. وبالرغم من الإعاقة تعلم الكتابة بنصفين من الأصابع وبرع في ذلك، وكان نشيطاً على صعيد العلم والتعلم، وقد عشنا معاً وعايشته داخل السجن وفي غرفة واحدة، وقبل سنتين (من كتابة هذه الذكريات) توفاه الله، رحمه الله.

تناولت من قبل رحلتي إلى الأردن، ولقائي بالأخ منير وإخوة آخرين من المعارف والأقارب، كان ذلك سنتي 1970–1971 طلباً للعلم، وبنية الالتحاق بالجامعة. ولكن لم يحالفني التوفيق، فرجعت إلى القدس، وعملت موظفاً في وزارة الأوقاف الأردنية، وكان ذلك سنة 1972. ولكن نفسي الثائرة، وممارسات الاحتلال وأعماله الاستفزازية، أججت الصدام في نفسي ودفعت بي ثانية وثالثة إلى أن أسافر إلى سورية ولبنان، متذرعاً بالدراسة انتساباً في جامعة بيروت العربية. وفعلاً عزمت على ذلك، وما إن تقاضيت راتبي الشهري من الأوقاف حتى انطلقت إلى الأردن بتصريح خروج، وودعني الوالد رحمه الله، وهو يقول: يا ولدي، والله لو أن هؤلاء الثوار يرفعون راية لا إله إلا الله... لما سبقتني إليهم، لكن طمأنته على ذلك وكنا واقفين بباب العامود، أو ما يسمى باب الشام. وما كنت أدري أن الوالد رحمه الله، قد سبقني إلى معرفة هؤلاء القوم، فقد كان على دراية بأحوالهم، وصحّ بعد التجربة ما حذرني منه الوالد. ولما وقع الصدام بين الثورة والنظام الأردني، وتوصل الطرفان إلى الخروج بقوات الثورة من العاصمة عمّان، وبرضى رئيس المنظمة عرفات، قال الأخ الشهيد أبو علي إياد، واسمه الحقيقي وليد عقاب من قلقيلية، مدينة الرجال، ورجالها أهل النخوة كما عرفتهم، ويكفينا من قلقيلية الشهداء سعيد الحوتري، وعبد الرحمن حماد "الكرز" ومحمد السمان، قال الأخ أبو علي إياد للرئيس عرفات: إذا خرجت بالثورة من عمّان، فهذه البداية لخروجك من الأردن. وما هي إلا عشرة أيام حتى كانت الحرب على الثورة في جبال دبين والأقرع، وأحراش جرش إلى إربد، وأحراش عجلون وكل الساحة الأردنية، وصدق أبو علي إياد، رحمه الله.

وأذكر من خلال الأيام الأخيرة للثورة في عمّان، أنه لما تقرر الانسحاب، وخرج المقاتلون بأسلحتهم، وكان منها الثقيل، قال وصفي التل، رئيس الوزراء الأردني، ووزير الدفاع وقت الصدام: لا أدري من أين، وكيف دخلت هذه الأسلحة إلى عمّان؟

لما ودعني الوالد رحمه الله، وحطت بي الحافلة في مدينة عمّان، وفي العادة كنت أجنح إلى زيارة الأقارب، لكن هذه المرة لم أفعل، فمن سيارة إلى أخرى، والوجهة دمشق. وجمعتني السيارة برفيق درب أدرى مني بالشام... ومن ثمّ تبين لي أنه رفيق في حزب البعث المحسوب على العراق، كان في رحلة للقاء بعض الرفاق من الذين يعيشون في سورية، وهذا الرجل يكنى أبا محمود، وصحبته إلى الفندق... ونمنا ليلتنا وقد أعيانا السفر، وصدق رسول الله ﷺ: "السفرُ قِطعةٌ من العذابِ"[3]. وروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: لولا أن رسول الله ﷺ قال: إن السفر قطعة من العذاب لقلت إن العذاب قطعة من السفر.

وبعد أن استيقظت من النوم لصلاة الصبح، نزلت من الفندق، وتجولت في عاصمة الأمويين، ومضت بي الأقدام إلى سوق الحميدية، وتعجبت من رائحة التاريخ تنبعث من أروقة هذه السوق، فإذا أنا على بوابة المسجد الأموي، وما إن دخلته... وكأني والله في غير زماني، آهٍ يا شام، حتى في طعامها ومطاعمها تتميز عن غيرها، فمنذ ذلك الحين سنة 1972، وإلى يومنا هذا لم يفارقني مذاق طعامها؟! وحتى على صعيد الملابس وكل ما في الشام، هيهات أن تجد له مثيلاً في العالم، وهي بلاد العلم والعلماء.

يا شام تحت رمادك الجمر قبّل تراب الشام يا عمرو

وفي دمشق التقيت، من خلال صاحبي أبي محمود، بإخوة كرام من الأردن وفلسطين، وبعد سياحة في دمشق ركبنا حافلة، وسارت بنا إلى بلدة اسمها التل، إلى الشمال من دمشق. وبها نزلنا عند بيت لأخ من فلسطين، عرفته بالكنية (أبو حسن الفلسطيني)، واستقبلنا رجال كرام هم على دين حزب البعث، ومنهم من توطدت علاقتي به، وهو الأخ محمد الهباهبة، من الشوبك، وكنيته (أبو سلطان)، وتعرفنا من خلال هذا اللقاء على أبناء الشتات، ومَنْ دفع بهم الظلم إلى هجر الأوطان. ثمّ رجعت إلى دمشق ومنها إلى بيروت. ولما وصَلْتُ بيروت، وحبي للتاريخ والجغرافيا يُخزِّن معالم الطريق، وأسماء

[3] حديث متفق عليه، انظر نص الحديث في: **صحيح الإمام البخاري**، الحديث رقم 1804. [المحرر]

المدن والقرى التي طواها السفر، من خروجي من عمّان وإلى الحدود الأردنية فالسورية، الرمثا ودرعا والشيخ مسكين وسهل حوران، الذي طالما قرأت عنه، ثمّ إلى الغرب منه القنيطرة والجولان، ثمّ دمشق. ولا أبالغ إن قلت إن ذاكرتي في التاريخ والجغرافيا حديدية والحمد لله.

والآن هذه بيروت بعد خروج الثورة الفلسطينية من الأردن أصبحت ملتقىً للثوار، ولي فيها عنوانٌ مِنْ قديم، فبعد حرب 1967، قام بزيارتنا أبناء عمومة وقرابة من آل أبي طير، في عبسان الكبيرة شرقي خانيونس، وتبادلنا الزيارات وتعرف بعضنا على بعض بعد هذا الانقطاع، وكنت أعرف عن بعد من خلال أبناء عمومتنا في عبسان، أن الأخ أحمد أبو طير، وكنيته (أبو أنور)، له وضعه المحترم في العمل الفدائي، وخاصة على صعيد حركة فتح، وعنوانه جامعة بيروت العربية. وأنا قادم من القدس، وغطائي إلى العمل الفدائي هو الانتساب إلى جامعة بيروت العربية، ولم يكن أمر الوصول إلى الأخ (أبي أنور) سهلاً؛ لأنهم جميعاً في الثورة على حقّ في الحذر، وتخوفهم له ما يُسَوِّغه؛ لأن دولة الاحتلال ما كان لها أن تتركهم دون اختراق، لكن الذي سهل الأمور، وساعد على الثقة، أنني والأستاذ سعيد أبو طير مدير مدرسة أم طوبا اليوم، كنا نعرف الأخت (أم أنور)، زوج أحمد أبو طير، وكذلك شقيقته زكية، وهي عنده في البيت، وقد أنهت دراستها في جامعة بيروت، وكلتاهما على معرفة بنا لأنهما نزلتا في بيت جدي، وهو مختار القرية يومذاك، فللمعرفة جذور، وبقيت هذه العاطفة وفيةً لماضيها. بل ازدادت لما تلاقينا، وعادت بنا الذكريات للوراء إلى أخبار العائلة، وإلى بيت جدي الذي هو المحطة الأخيرة قبل سفرهما إلى الأردن.

استقبلني من هو قريب في العمل عند الأخ أبي أنور، واصطحبني إلى البيت في مخيم برج البراجنة، الواقع إلى الجنوب من بيروت. وتعرفت على الأخ أبي أنور وعلى أفراد العائلة، وعلى إخوة آخرين من آل أبي طير، منهم الأخوان رجب أبو طير وإبراهيم أبو طير المشهور برأفت. ومنذ اللقاء الأول مع الأخ أبي أنور قلت له: ما جئت للدراسة، إنما جئت للعمل الفدائي، والمطلوب هو تدريبي وتسليحي، وما الدراسة في الجامعة إلا ستار، ولا أريد لأيامي أن تطول هنا، ما هو مهم عندي أن أعود إلى أرض الوطن بوضع جديد يَقوى على مقاومة الاحتلال. لكن شعرت من خلال الإقامة عندهم، والتردد عليهم أني في اختبار، فأنا على عجلة من أمري، وهم على أقل من راحتهم. وكذلك لا أريد لرفاقي في السكن والجامعة من أبناء قريتنا، أن يلحظوا علي حراكي هذا من خلال الذهاب

والإياب. فالأستاذ سعيد والأستاذ محمود فواقة من صور باهر إلى جانب أنهم أساتذة في مدارس القدس، لكنهم واصلوا تعليمهم الجامعي بالانتساب، وكنا معاً، وجمعتنا بيروت والأيام، ولكلٍ منا شأنه وطريقه.

جاءني الأخ أبو أنور، وعرَّفني على رجل فاضل هو الأستاذ حمد العايدي، وكنيته (أبو رمزي)، وتناولنا أطراف الحديث عن الوطن وممارسات الاحتلال، وطلبت منهم وبإلحاح ألا يطول بي المقام هنا. وكان القرار أن أذهب إلى مخيم الرشيدية للاجئين الفلسطينيين، وأن أتدرب على السلاح هناك، ومنها صناعة المتفجرات، ولأسبوع مكثت هناك، وأنا أتدرب على ما تيسر والموجود من الأسلحة. حتى قذائف المورتر التي هي من بقايا الجيش الأردني، تدربت على كيفية إطلاقها بدون قاذف أو مدفع.

انتهيت من هناك ورجعت إلى بيروت، وخضعت لدورة أمنية قبل العودة إلى القدس، ودورة لقيادة السيارة في شوارع بيروت الصاخبة.

كانت منطقة الفاكهاني من بيروت تشكل دولة للفدائيين، وهي الأكثر حضوراً على صعيد قادة الثورة. وكان لا بدّ من الخوف والحذر؛ لأن استشهاد القادة الثلاثة أبو يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر، شكل ضربة قاسية للأمن المركزي المسؤول عن سلامة هؤلاء القادة وغيرهم.

وقبل العودة، التقاني الأخ أبو أنور، ووجه إلي بعض النصائح، وغطاني باسم حركي هو "طارق بن زياد"، وزودني بشيفرة، وقد أصبح لديه انطباعٌ عن أوضاعنا في القدس والضفة، وإمكانيات العمل والتنظيم، وكان معنياً أن يطمئن إلى هذا القادم الجديد، وحقّ له ذلك.

رجعت إلى القدس، ولا أحد يعلم برحلتي هذه من الأقارب إلا أمي وأبي، رحمهما الله، ومن سواهم يعلم أنني إمام في قرية الجيب، ومن الطبيعي أن أغيب عن البيت ولو لأسابيع، فكنت على قدر من النجاح في تغطية تحركاتي.

وذات مرة كنت في بيروت، لمرة ثانية أو ثالثة، وماتت جدتي لأبي في هذه الزيارة، فقال جدي لأمي، رحمهم الله جميعاً: أين الشيخ يا هاجر؟ قالت أمي رحمها الله: الشيخ في بيرزيت، قال لها: بيرزيت ليست بعيدة. وكان جدي يريدني أن أحضر جنازة جدتي، لكنني لم أحضر الجنازة؛ وقد كان ذلك سنة 1974.

رجعت إلى القدس، والتقيت بمن أثق بهم ميدانياً، وغلب عليهم إقدامُ الذين آمنوا بالعمل الفدائي، وهمهم مقارعة الاحتلال، وعرضت عليهم المطلوب منا، وأن عليهم الذهاب إلى هناك... إلى بيروت، من أجل التدرّب على السلاح لمن استطاع. واتفقنا على أولويات في العمل، وأول ذلك الكفاح المسلح، ثمّ تعبئة الرأي العام من خلال المنشورات، وإيقاظ الحس الوطني تجاه سماسرة الأرض والجواسيس، وكان لنا ذلك، وعملنا على هذه الأولويات دون استثناء.

ثوار بيروت:

من خلال الأيام القليلة التي قضيتها في بيروت، خرجت بانطباع سيء عن أحوال المدينة، وحتى عن العاملين في سلك العمل الفدائي، فالمدينة متبرجة إلا من رحم الله، ويسمونها باريس الشرق، وهناك سلوكيات على صعيد مَنْ يعنيني أمرهم، وهم الفدائيون أو العاملون في الأمن. قال لي إبراهيم أبو طير، وهو ضابط في الأمن: انظر إلى هذا الفتى الذي يترنح، ولا يعيب لونه؛ لأنه أسود البشرة، ولكنه يعمل في الأمن ويعاقر الخمر. بل حتى على صعيد قيادات، قال لي حَمدَ العايدي (أبو رمزي)، رحمه الله، أبو الزعيم تزوج من مارونية، دون رضى أهلها، فما كان من أبي عمار إلا أن جعله منسقاً بين الثورة والكتائب اللبنانية، وقد أصبحوا أصهاره. وقال أبو رمزي: أبو الزعيم هذا شاعر، ويكتب الشعر ويشرب الخمر، والذي عرفته عن أبي الزعيم أنه كان ضابطاً في الجيش الأردني، وخرج مع الثورة بعد أحداث أيلول/ سبتمبر 1970. وكان على العمل الفدائي أن يترفّع، وأن يحافظ على سمعته التي ملأت الآفاق. وذات مرة، وأنا في شقة من عمارة في دورة تدريبية، وإذا بفتيات فرنسيات نائمات في الشقة، وشاهدت المسؤول عن التدريب دون ذكر اسمه، ما عليه إلا ما يستر العورة، وقيل لي: إنهن متضامنات مع الثورة الفلسطينية... وهنّ في مهمة!!.

فهذه الأمور، أزعجتني وجعلتني أراجع حساباتي، وأنا ابن القرية، وما تلوثت فطرتي أبداً، والحمد لله، وتذكرت ما قاله لي أبي، رحمه الله.

بعد ترتيب الأوراق على صعيد العمل في القدس، وحتى في الضفة الغربية، ففي مكان عملي في قرية الجيب كان من حولي فتية، واستعدادهم للعمل الوطني جيد، حتى إن منهم مَنْ مشى معي إلى الأودية، منها وادي سلمان، غربي الجيب، بحثاً عن السلاح من بقايا

الجيش الأردني، وكان ذلك وقمت بنقله من ذلك الوادي إلى بيتي في قرية الجيب، هذه المحطة الأولى، ثمّ نقلته إلى بيتي في أم طوبا. وكان من ذلك قذائف الدبابات التي بالإمكان استخدامها ضدّ قوات الاحتلال، وقنابل يدوية، وكمية من الأعيرة النارية.

ووادي سلمان هذا بيع للصهاينة فيما بعد، وما حوله من التلال، وأقيمت عليه مستوطنة جفعات زئيف. وقد تغولت هذه المستوطنة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، على حساب أراضي القرى العربية المحيطة. وشكلت إزعاجاً للسيارة وللمزارعين من العرب.

ثورة خراب فلسطين:

بعد ذلك رجعت إلى بيروت، ولا أذكر التواريخ لكن كل ذلك، وكل ما أتحدث عنه جرى ما بين 1972–1974، رجعت إلى بيروت، والتقيت مَنْ تولوا أمرنا في تلك المرحلة، ولا أشك في إخلاصهم ووطنيتهم، حتى إن أبا رمزي العايدي قال لي: يا شيخ، كل مَنْ تحدثه نفسه بالصلح مع "إسرائيل"، رأس ماله رصاصة بين عينيه، وقال: أقول هذا لأنه توجد الآن رائحة لمثل هذا الطرح.

وذات يوم، ونحن مجتمعون على وجبة غداء، و"مِنْسف" فلسطيني، في بيت أبي أنور أحمد أبو طير، اجتمعنا مع الأخ هايل عبد الحميد (أبو الهول)، وتجاذبنا أطراف الحديث من هنا وهناك عن الثورة، ومدى حضورها في الأرض المحتلة، بل طلب مني أسماء للمجموعات التي انتظمت للعمل الفدائي في القدس والضفة، لكن آثرت ألا أذكر الأسماء؛ لأن ذلك لا يعنيهم في الخارج؛ ولأن خوفي من الاختراق تعزز عندما اقتحم الإسرائيليون بيوت القادة الثلاثة، وأخذوا محتويات البيوت. وشاهدت حذر الأخ أبي رمزي من حمل الأوراق، المهم أنه من خلال تردّدي على بيروت، وعلى مكاتب الثورة كنت ألح على التسليح؛ لأننا في أمس الحاجة إليه، ولكن لا أدري ما المعوقات التي حالت دون ذلك، وإن كنت ألتمس الأعذار.

على كل حال، ضاقت نفسي من هذا الإمهال، وعزمت على الرحيل، والعودة إلى القدس بلا رجعة. وحضرني في هذا الموقف الشهيد عبد القادر الحسيني، رحمه الله، لما طلب الدعم من لجنة إنقاذ فلسطين، لكنهم خذلوه، ورجع غاضباً وهو يقول: هذه لجنة دمار فلسطين، وليست بلجنة إنقاذ. وقلت ولا أدري أسمعها أحد هناك أم لا، هذه "ثورة

خراب فلسطين"، وليست بثورة تحرير فلسطين، وأتت الأيام بما قلت وإذا بها ثورة الدولارات وثوار المقاهي. وكانت خاتمتها أسوأ مما كان متصوراً، حيث عاد الثوار من المنافي "خدماً" للمشروع الصهيوني... يعملون في أجهزة الأمن الفلسطينية، ويمارسون التحقيق مع المجاهدين، بل بلغت بهم الوقاحة أن يُقتل الشيخ المجاهد مجد البرغوثي، وآخرون سواه في التحقيق على أيدي أجهزة السلطة، التي آثرت التنسيق الأمني على حساب الشعب الفلسطيني وقضيته.

قائدي سعد صايل:

بعد أن غادرت بيروت في طريق عودتي إلى القدس نزلت في دمشق، وفي نيتي أن أُعرّج على بلدة التل التي سبق أن زرتها من قبل؛ ومن أجل وداع من تعرفت عليهم، وعلى الخصوص أبو سلطان الهباهبة. ولما وصلت بلدة التل سألت عن العنوان الذي أعرفه، وهو بيت أبو الحسن الفلسطيني، فقالوا لي: إن الرجل قد رحل. وبينما أنا في حيرة من أمري سألت شاباً مكتنزاً يرتدي لباس العساكر، بعد التحية والسلام، سألته إن كان يعرف بيت أبي سلطان الهباهبة، فقال الرجل: سمعت به، ولكن لا أعرف أين بيته؟ وإذا بعسكري آخر على مقربة منا، فسأله هذا الشاب: أتعرف أين يسكن أبو سلطان الهباهبة، أو أنك سمعت عنه؟ فقال الرجل: أظنه يسكن تحت المستشفى إلى الشمال من هنا. وتأملني الشاب ملياً وسألني: من أين أنت؟ لهجتك قريبة ومعروفة لي؟ قلت له: من فلسطين، قال: كلنا من فلسطين، فاسترعى اهتمامي، وبدأت أدقق في الرجل وأتملاه، وقلت: أنا من القدس. قال: من صور باهر أم من أم طوبا، فعرفت الرجل، وقلت له: أنا من أم طوبا، وأنت سليمان داود عيسى من صور باهر، قال: نعم، قلت: أذكرك، وأنت كابتن في كرة الطائرة في مدرسة صور باهر، فقال الرجل: أنت ضيفي إذن قبل أن تكون ضيفاً على أبي سلطان، فقلت: الوفاء أن نزور الرجل ونستأذن منه، فوافق على ذلك معاً، واستقبلنا وألح على ضيافتنا، لكن الأخ أبا داود أصر على استضافتي، وودعنا الرجل بعد أن قام بواجب الضيافة على أمل اللقاء.

أما سليمان الذي نزلت في ضيافته، فقال: الليلة تتعرف على أهل بلدتنا الذين خرجوا مع الثورة، وهم في الحال كحال سليمان؛ خرج من الأردن بعد أحداث أيلول/ سبتمبر، وكان ضابطاً في سلاح الهندسة الأردني. وكذلك البقية ممن زرتهم، فايز محمد عوض عطون، ورمضان عطون، وعمر علي خليل الدويات، هؤلاء خرجوا من الأردن، وقد

كانوا جنوداً في الجيش الأردني، وكانوا فرحين بي لما نزلت بهم. وكما يقولون: رائحة البلاد، والحديث ذو شجون... وتحدثنا عن القدس، وعن صور باهر وأم طوبا، وعن الناس وأحوالهم، وكان منهم من هو قادم من الكويت لزيارة أصهاره، وبعد سهرة عند أهلنا هؤلاء اصطحبني الأخ سليمان إلى بيته لسهرة أخرى، وألقيت بنفسي على الفراش من التعب، ونمت بعد حديث طويل عن الثورة، وكنت أستمع إليه بصعوبة، من شدة التعب، وقد بلغ النعاس مني مبلغه.

حديث تلك الليلة: بعد الترحيب وقد أويت إلى الفراش، سألني الأخ سليمان عن القدس وأوضاعها، وعن تفاعل الناس مع الثورة الفلسطينية وكيف هي مشاعرهم؟ واستعداد الناس للعمل الفدائي. قلت له من حيث إنه لا يدري بالذي حصل معي في بيروت، أنتم في الثورة الفلسطينية بعيدون عن الواقع، ليس هذا فحسب، بل أنتم أقرب إلى الجعجعة من كونكم عمليين، الناس مفطورون على حبّ الأوطان، والناس لا يقبلون بالاحتلال، لكن بينكم وبين الناس حواجز كثيرة، المصداقية أساس كل شيء، والناس إن لم يجدوا هذه المصداقية في الثورة الفلسطينية، فستبقى الثورة في وادٍ والناس في وادٍ آخر، ألم يقل أبو عمار، رحمه الله، إن أخطاء الأردن لن تتكرر؟ وما شاهدته في بيروت من أخطاء وممارسات أكثر من أخطاء الأردن. وسألني: لم هذا التحامل على الثورة؟ أنت الشخص الثاني الذي يحمل على الثورة، فقد زارني قريب لي من صور باهر يبحث عن ولده الذي اختطفه الأمن المركزي بتهمة العمالة، ومدح تعامل الدولة العبرية.

قلت له: اسمع يا أبا داود، ما يقرب من سنتين وأنا أعمل مع الأمن المركزي في بيروت، وقصدتهم للتدريب وإمدادنا بالسلاح، لكن دون ما أتمنى وأريد، وتركت بيروت راجعاً إلى القدس، والنية ألاّ أعود، وذكرت له كلام الشهيد عبد القادر الحسيني في لجنة الإنقاذ.

هنا ارتاح الأخ سليمان قليلاً، وقال في الغد إن شاء الله ننزل دمشق، ونلتقي الأخ أبا جهاد الوزير، وسنجد حلاً لهذه المشكلة، والرجل قادر على ذلك. وقبلت بالأمر الواقع، وفي الصباح نزلنا إلى دمشق، وفي منطقة يقال لها "السبع بحيرات" مكتب للثورة يقال له 23. دخلنا المكتب ووجدنا الأخ أبا الوليد سعد صايل، واستقبلنا الرجل، بتواضع، واستمع إلى تجربتي في بيروت، واستعد الرجل بما لديه من إمكانيات، لتزويدنا بالسلاح، وطلب مني تقريراً عن الأرض المحتلة، وذكرت للجميع تجربتنا

السابقة في بيروت وفي دمشق منذ أيام الكرامة... وقصة الأخوين الشهيد فوزي أبو طير والأخ منير أبو طير. والتزمت مع الرجل، وهو معروف أنه مارشال الثورة الفلسطينية، وهو رئيس هيئة الأركان أيام العدوان الإسرائيلي على الجنوب اللبناني سنة 1982، وحدثني رحمه الله، أن للجنوب اللبناني استراتيجية نحو تحرير فلسطين من الشمال، بما لا يقل عن دور الساحة الأردنية، وأن الإعداد لذلك يمضي على قدم وساق. وحقيقة أن الجنوب اللبناني، بتضاريسه وموقعه الجغرافي والحضور الديموغرافي، يشكل خطراً استراتيجياً على دولة الاحتلال، وهذا ما تحقق في ظلّ المقاومة اللبنانية، ودحر قوات الغزو الصهيوني. وأبو الوليد سعد كان قائد سلاح الهندسة، وقائد لواء الحسين في الجيش الأردني، حتى أن الملك حسين طلب منه العودة إلى عمّان وإلى الجيش الأردني، لكنه رفض ذلك. وحدثني رحمه الله، عن المطران كابوتشي، وعن دوره في نقل السلاح بسيارته من لبنان إلى فلسطين المحتلة، عن طريق رأس الناقورة، واعتقل الصهاينة المطران كابوتشي، وحكمت عليه المحاكم الإسرائيلية 12 سنة، وأمضى منها 4 سنوات، وبضغط من الباباوية أفرج عنه على أن يبقى خارج البلاد.

بعدها طلب مني أبو الوليد أن أذهب في جولة تدريبية في معسكرات دوما وحمورية، التابعة للثورة الفلسطينية في الأراضي السورية، وتمّ لي ذلك، حيث أشرف على تدريبي وقتذاك عز الدين الشريف، محافظ طولكرم السابق رحمه الله، والتقيت الأخ الفاضل المتواضع أبا منير ناهض الريس، وكان مدعياً عاماً للثورة الفلسطينية، وأحاطني رحمه الله، بنصائحه وشكرت له. وبعد أن انتهيت من رحلة التدريب، ودعني أبو الوليد يوم عودتي إلى القدس. ويكفيني من هذا الرجل تواضعه، وهو من أعترف به قائداً لي في الثورة الفلسطينية.

بعد العودة إلى القدس، وقد شعرنا بالجدية والمصداقية، ومن خلال مجموعتنا الأولى مع الأخوين منير ومحمود أبو طير، كانت لنا أعمال دفعنا ضريبتها بالاعتقال والتعذيب. أما مجموعتنا الثانية فكان تنظيمها جيداً، كانت على المستوى التنظيمي قمة في العمل السري؛ فبعد اعتقالي والحكم علي بستة عشر عاماً بقي أفراد المجموعة خارج الأسوار، ومنهم من غادر البلاد خوفاً من السجن والاعتقال إلى الأردن، ورجعوا بعد حين لما اطمئنوا أن أسماءهم لم تذكر في التحقيق، ولقد كانت لنا صولة، وشعرنا بالارتياح لما أقدمنا عليه.

لم يمضِ عليّ أسبوعان حتى رجعت إلى دمشق ثانية، واستقبلني الأخ أبو الوليد في بيته، وفي جعبتي تقرير عن نشاطاتنا في الأرض المحتلة، وعن إمكانيات النجاح للعمل الفدائي عندما يتوفر لنا السلاح، والتي في النتيجة تقض مضاجع الاحتلال. ولكن لم يطل بي المقام، فرجعتُ إلى أرض الوطن. وعلى طريق العودة حجزت المخابرات الأردنية جواز سفري الأردني، عند نقطة الحدود في الرمثا، وطلبت مني مراجعة المخابرات العامة في العبدلي. وفي اليوم الثاني ذهبت إلى هناك، ودخلت على مجموعة من الضباط في مجلس عسكري، وتأملوني وسألوني عن أسباب ترددي على دمشق وبيروت، فقلت لهم: إنني أدرس في جامعة بيروت العربية عن طريق الانتساب، وسألوني عن الثورة... وإن كانت لي علاقة معها، فنفيت ذلك بثقة، وقلت لهم أنا موظف في وزارة الأوقاف الأردنية، وعندي ما يشغلني عن ذلك، وأسئلة لا أذكرها. وانفض المجلس، واصطحبني ضابط برتبة مقدم والله أعلم، إلى غرفة رئيس المخابرات العامة نذير رشيد، وقال لي الضابط في الطريق: لا تغير من كلامك، إياك ثمّ إياك، وارتحت لتصرف هذا الضابط، وشكرته في نفسي بعد أن وافقته بإيماءة من رأسي.

دخلت على نذير رشيد، ورحب بي قائلاً: أهلاً أيها الشيخ، وكنت معمماً، فرددت عليه التحية بثقة وأجلسني وسألني عن الثورة، وإن كانت لي علاقة معها، فنفيت أن تكون لي أي علاقة، وأن تجربة الثورة في الأردن كانت فاشلة، وأعطاني جواز سفري، وغادرت مبنى المخابرات العامة، ثمّ ذهبت لزيارة بعض أقاربي، وإذا بهم يعزونني في جدتي، التي ذكرت قصة غيابي عن جنازتها، بدعوى أمي رحمها الله، أنني في بيرزيت، حيث كانت فترة إقامتي في عمّان قصيرة، لا أدري أهي يومان أم ثلاثة ثمّ رجعت إلى القدس.

حرب 1973/ حرب رمضان:

ما بين حرب 1967 وحرب 1973 ما يقارب سبع سنوات، وقد تجرعت أمة العرب كأس المرارة بعد الذي أصابها في حرب 1967. وقد رفضت الشعوب العربية الهزيمة، حتى إنه لما أقدم جمال عبد الناصر على الاستقالة بعد هزيمة سنة 1967، والتخلي عن رئاسة الجمهورية وجميع صلاحياته، وتحمل مسؤولية الهزيمة، خرجت الجماهير في مظاهرات حاشدة ترفض الهزيمة، وليس كما يقال إنها مؤمنة بقيادة الزعيم، فالزعيم ما جلب لها إلا العار.

لقد رفضت الجماهير العربية نتائج الهزيمة، وجاءت الثورة الفلسطينية رافعةً لحس الجماهير، وكان لشعوب العرب نصيبٌ في الانتماء لهذه الثورة، والتحق في صفوفها أحرارُ العالم، من اليابان إلى أوروبا فأمريكا الجنوبية، ممن تفاعلوا مع الثورة الفلسطينية، وانتصروا لها.

وعلى الساحة الأردنية، كانت هناك قواعد للإخوان المسلمين تحت اسم قواعد الشيوخ، وكانت لهم معسكراتهم وعملياتهم، ومن أشهرها عملية الحزام الأخضر، التي طالما تغنت بها الثورة الفلسطينية من خلال إعلامها، وسمعتها بأذني والمذيع يخاطب الصهاينة: "أعيدوها ثانية لعملية الحزام الأخضر".

كان من شروط جمال عبد الناصر على الرئيس عرفات ألا يكون للإخوان المسلمين نصيب في هذه الثورة حتى يدعمها. وكان عرفات وقادة الفصائل الأخرى، وهم على الأغلب من اليسار، ويحملون الفكر الماركسي، ويرفضون الحضور الإسلامي في الثورة بشدة، وأن الثورة والعالم في طريقه حتماً إلى الشيوعية. ولولا أن الحضور الإسلامي فُرض بالقوة فيما بعد، لبقيت الساحة حكراً على العلمانيين واليساريين فقط، ولم تكن سجون الاحتلال في منأى عن ذلك، بل كان الاحتلال أقرب إليهم من الإخوان المسلمين، ومن كل الحركات الإسلامية، بل التهم جاهزة وعلى المقاس، أنهم عملاء للغرب. وكانوا ينعتوننا في السجون بالمنفلشين، وهي من مصطلحات الثورة البلشفية، فالخارج على البلشفية، منفلش.

على كل حال رفضت الجماهير قبول الهزيمة، وجاء الإعداد لحرب جديدة، لتحرير أرض العرب واستعادة هيبتهم في المحافل الدولية. ولن تكون لهم هيبةٌ إلا في ظلّ الإسلام، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله"، فالعرب في أثناء حرب 1973 تسلحوا بالتكبير، وأسموها حرب رمضان، وجعلوا كلمة السر "بدراً"، تيمناً بمعارك الإسلام، ولما انتهت الحرب أسموها حرب أكتوبر، وتشرين، وما إلى ذلك.

بدأت دول ما يسمى "الطوق" بالإعداد من أجل التحرير، والدول العربية الأخرى كان دورها الإسناد. وتشكلت صياغة جديدة لجيوش التحرير، وبروح جديدة وبقيادة جديدة وبسلاح جديد، وإن لم يَرْقَ إلى مستوى ما تتسلح به دولة الاحتلال. وبدأت حرب الاستنزاف مباشرة بعد حرب 1967، واشتد ضرامها سنتي 1969–1970. حرب

ساخنة، وضربات موجعة من الجيش المصري، على جبهة قناة السويس وعمليات داخل سيناء. عمليات مشهود لها، وكانت ردة فعل دولة الاحتلال ضرب المدارس والمصانع، فضربت مدرسة بحر البقر، ودمرت مدينة السويس، حتى أصبحت مدينة أشباح، لكن عمرتها سواعدُ الأبطال بعد حرب 1973، وضربت المصانع في أبي زعبل، وحدِّثْ عن إجرام الصهاينة ولا حرج.

وجاءت ساعة الصفر لحرب 1973، وبسرية تامة واتفاق بين مصر وسورية، ودخل الجيش المصري سيناء، ودمر "خط بارليف"، الحاجز الناري الذي لا شبيه له في العالم. وخسرت "إسرائيل" في هذه الحرب جيلاً كاملاً، وكانت أكبر حرب دبابات في العالم تدور رحاها على أرض المعركة، حتى نفد عتاد العدو الصهيوني، الذي عوضته أمريكا بجسر جوي مباشر إلى مطار العريش. ونجح السادات من قبل في تعمية الحرب، وقال عن سنوات ما قبل الحرب: سنة ضباب، لا تصلح للمعارك. وفي سنة 1971 هناك جبهة ساخنة، وحرب تدور رحاها بين الهند وباكستان، والعالم قلق من الذي يجري. ونجح الرجل في فرض واقع جديد من خلال الحرب، لكنه فشل فشلاً ذريعاً عندما ذهب إلى الصلح مع دولة الاحتلال وتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد Camp David، حتى قال هنري كيسنجر Henry Kissinger، وزير الخارجية الأمريكية في حينها: "نجحنا في إخراج الحوت من البحر". أما اليوم، فقد رجع الحوت الأزرق إلى المحيط.

أما الجيش السوري فقد استرد معظم الجولان، ووصلت طلائعه بحيرة طبريا من الشرق، لكنه تراجع بعد ذلك؛ لأن الجولان مسألة حياة أو موت عند دولة الاحتلال؛ ولأن السادات قَبِل بوقف إطلاق النار على الجبهة المصرية، فتحول الضغط على الجبهة السورية.

Sidi ‘Umar: The Memoirs of Muhammad Abu Tair About Resistance and His 33 Years in the Israeli Jails

هذا الكتاب

يسجل هذا الكتاب ذكريات مسيرة طويلة لشيخ مجاهد، وشخصية إسلامية وطنية، برزت في سبعينيات القرن الماضي كأحد رموز المقاومة من أبناء حركة فتح. ثم أصبحت أحد أبرز مؤسسي الجماعة الإسلامية وحركة حماس في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

في هذا الكتاب، يشرح الشيخ محمد أبو طير تجربة 33 عاماً في سجون الاحتلال، ومواقفه ومواقف الحركة الأسيرة من القضايا الوطنية وهموم الأمة المختلفة. ويسجّل جزءاً مهماً من تاريخ الأسرى في سجون الاحتلال، وخصوصاً أسرى حماس، وما رافق ذلك من معاناة في السجون ومواجهات مع السجّانين. كما يتعرض لعلاقات أسرى حماس بالأسرى من باقي الفصائل الفلسطينية، وما رافق ذلك من حالات تعاون أو شدّ واحتكاك.

وتبرز في هذه الذكريات جوانب من تجارب العمل العسكري المقاوم الذي خاضه أبو طير من خلال فتح، ثم على مدى زمني أوسع من خلال حماس. بالإضافة إلى تجربته في العمل السياسي، وانتخابات المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية.

ويسر مركز الزيتونة طباعة هذا الكتاب الذي يخط شهادة وحكاية الشيخ أبي طير، شيخ بيت المقدس، الذي عُرف بين إخوانه بـــ"سيدي عمر"؛ ليكون أحد أهم ما صدر من كتب في تجربة الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

ISBN 978-9953-500-62-1

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب: 14-5034 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net